« وقلما استهدف انسان للتقربات من همز ولمز استهداف هذا الحاكم الشرقي العظيم لها، فقد كان والحق يقال رجلاً ذا اقتدار عجيب فامضى المهمة التي انتدب لها بعزم وحزم. فهو الذي خمد فتنة ابن الاشعث بحسن ثباته ورباطة جأشه فلما اعيد الامن الى نصابه ظهرت كفاءته على اتم مجاليها في كل وجهة ولّيها. فمن احياء موات الارض (في العراق) الى ترقية الزراعة بكل وسيلة وخصوصاً حفر الترع الى تنظيم الضرائب وجباية الاعشار مما كان فيه مبتكراً لا مقتبساً. واظهر حكمة فائقة في اختيار عماله وبلغ من هيبته ورهبة اسمه ان استتب النظام حتى في البادية فامن الناس فيها على ارواحهم ومتاعهم. ولا ريب ان معظم السبب في انتصاراته الحربية المتوالية شدة عنايته « بمهمات » جيشه من سلاح ومؤونة. ولقد كان الحجاج مسلماً صادق الاسلام ولكن هذا لم يمنعه من مهاجمة ابن الزبير وحصر مكة والايقاع بالعصاة من الشهداء وابناء الصحابيين » (نقيب)

استعمار السوريين بين العهدين

تمهيد

للسوري القديم — الفينيقي — في عالم الاستعمار والمهاجرة سفر مكتوب بماء الذهب على صفحات البحار ملؤه طلب العلاء ولو باقتحام الاخطار. وللسوري الحديث الذي ضرب في بلاد الله طولاً وعرضاً شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً سفر آخر خليق به كسابيل الفينيقيين اساد البحار. ولكن بين السفرين صفحة غير مكتوبة عن سوريي الاجيال القريبة من العهد المسيحي والاجيال الوسطى. ولدي البحث يتبين ان تلك الصفحة حلقة متصلة لا منفصلة في سلسلة المهاجرة التي ابتدأت بالفينيقيين وانتهت بمهاجري اليوم وان ذلك السوري ثم في هذا السبيل ما اورثه له السلف وشرع بما ورثه عنه الخلف

ولما كان تاريخ المهاجرة السورية بين عهد الفينيقيين — وامرهم معروف — وعهدنا الحاضر الذي لا يحتاج الى تعريف نسياً منسياً وصفحة مطوية كان لا بد من الاكتفاء بذكر حوادث متقطعة غير متصلة عثرنا عليها هنا وهناك. وهي القليل الذي يدل على الكثير والتي يجب اعتبارها ازهاراً التقاها اليد التاريخ من فوق حائط تخيل ما يحيط به فجاءت خير دليل على ان هناك بستاناً كثير الرياحين

العصر السلوقي

دوّخ الاسكندر سورية عام ٣٣٢ ق.م وتولاّها بعدهُ خلفاؤهُ السلوقيون نحواً من ثلاثة قرون فتقاطرت اليها اقدام المكدونيين اليونان واسّسوا فيها مستعمراتهم ومدنهم ونشروا لغتهم وعدّتهم والامر الذي قلّ ينتبه لهُ الكتّاب والمؤرخون ان المهاجرة لم تكن الى سورية فقط بل منها ايضاً وان المدنية اليونانية لم تؤثر في سورية بقدر ما اثّرت المدنيّة السورية — بواسطة الوطنيين والمهاجرين — في اليونان. والحقيقة ان كثيراً من الصنّاع والتجّار السوريين نزحوا في ذلك العصر الى المراكز التجارية في بلاد اليونان وانشأوا فيها معاملهم ومصارفهم ومخازنهم. واشهر من هذه المستعمرات السورية في القرن الثاني قبل المسيح مستعمرة في بيريس ميناء اثينا واخرى في رودس اصل سكّانها من جزيرة رواد كان لهم حاكم منهم. وكان اهمها المستعمرة السورية في جزيرة ديلوس اقام فيها المستعمرون هيكلاً عظيماً لعبادة الالاهة السورية اطارغتس (وهي افروديت اوعشتروت) ولعبادة بطلها هدد[1] ومن هذا الهيكل انتشرت عبادة هذين الالهين السوريين في بلاد اليونان. وكان للسوريين فيها طريقة دينية ذات صولة وكانت ديلوس سوقاً للاتجار بالرقيق السوري وهؤلاء الارقاء انتهت بهم الحال الى هناك اما جملة بدواعي الحروب او افراداً بسبب الدّين والافلاس او ارتكاب الجرائم. وبعضهم كان الخاسون يسرقونهم او يشترونهم من ذويهم كما يشترون سلعة من السلع. واذا تذكّرنا ان الاسكندر نقل من صور وحدها ٣٠٠٠٠ اسير وان تيطس بعدهُ بار بعة قرون اسر ٩٠٠٠٠ من سكان اورشليم هان علينا تصوّر عدد الارقاء السوريين خارج بلادهم

كثر عدد الرقيق السوري في سهول سقلية الزراعية واشتدّ عليهم ضغط اسيادهم من يونان ورومان. حتى ان المحرّك الاول والزعيم الاكبر للحروب المعروفة «بحروب الرقيق» التي طار شرارها عام ١٣٥ ق.م وتركت سقلية قاعاً صفصفاً كان شاباً من حماه اسمهُ يونُس ادّعى ان الالهة السورية المعبّد لها جعلتهُ ملكاً وامرتهُ برفع لواء الثورة والعصيان فعمد الى اثبات دعواهُ باظهار مقدرتهِ على بلع النار. كذلك ادّعى النبوّة سلڤيوس زعيم ثورة عام ١٠٣ ق.م وسمى نفسهُ تريفون Tryphon باسم احد الملوك السوريين

لم يكن الملوك السلوقيون من منشطي الدرس والادب. ولم يجد شعراء سورية وعلماؤها

(١) سمي بهذا الاسم عدد من اشخاص العهد القديم. انظر تكوين ٣٦: ٣٩ والملوك الاول ١١: ١٤

وخطباؤها من الاتباع والتلامذة والمريدين قدر ما ارادوا فنزحوا عنها وجعلوا يطوفون من مكان الى آخر في آسيا الصغرى وجزائر البحر وبلاد اليونان وايطاليا

فقد نشأ من مواليد جدّره [1] المشرفة على اليرموك (وهي اليوم خرابات ام قيس في حوران) الشاعر الانثولوجي مليغر Meleager وهو من ارومة سورية . وُلد حوالى سنة ١٣٠ ق . م واتقن الآرامية والفينيقية واليونانية ثم نزح الى جزيرة كوس حيث عكف على الدروس الفلسفية وألف كتاباً سماهُ بالاكليل "Anthologos" جمع فيهِ قصائد شاردة لستة واربعين شاعراً ممَّن سبقهُ واضاف اليها طائفةً من منظوماتهِ . وشبَّه كل شاعرٍ من اولئك الشعراء بزهرة تناسب موهبتهُ وقادى في ذلك الى وصف نباتات سورية ومنها القصب العَطِر الذي قال عنهُ انهُ ينمو في جوار لبنان وبحر الجليل . ومن مميزات هذا الشاعر اعجابهُ بالطبيعة ووصفهُ لمحاسنها — الامر الذي تمتاز بهِ الآداب السورية . فهو واضع العلم المعروف بعلم الانثولوجيا

وكان من معاصريهِ بوسيدونيُس Posidonius الفيلسوف الرواقي والمؤرخ الذي درس عليهِ جماعة من علماء الرومان ومهَّد السبيل للعصر الاوغسطي الذهبي . وُلد هذا الفيلسوف في حماه عام ١٣٥ ق . م وبعد ان تخرَّج في مدارس اثينا جال في اوربا يدرس التاريخ والجغرافية والفلسفة وترأس اخيراً المدرسة الرواقية في رودس حيث درس عليهِ شيشرون الخطيب . وكان شيشرون قبل ذلك تلميذاً لانطيوخوس العسقلاني رئيس احدى مدارس اثينا . ومن المشاهير الذين قصدوا بوسيدونيُس لزيارتهِ القائد بومبيوس العاتي الروماني زارهُ في رودس مرتين

ومن مهاجري حماه النابغين الطبيب أرخيجنس Archigenes اشار اليهِ المؤرخ جوڤينال مراراً في عداد عارفي الطب في رومية وميزهُ بانهُ كان من الاخصائيين بالامراض العقلية . ومن مؤلفاتهِ كتاب في « النبض » شرحهُ جالينوس

ثم اشتهر الشاعر ارخياس الذي وُلد عام ١٠ ق . م في انطاكية فانهُ تقرَّب من كثير من اشراف الرومان واخصهم أسرة لكلُس العريقة في النسب . ثم هاجر الى البزنطية (القسطنطينية) حيث عُرف بالمقدرة على الخطابة ارتجالاً . ونافس لذلك معاصرهُ أنتيباتر Antipater الصيداوي الذي شجر بلادهُ — شأن اكثر مواطنيهِ النابغين — وجال في

(١) "Mission de Phénicie" Renan صفحة ٧٨٢

ايطاليا فجاءت اشعاره مثالاً يحتذى من عقبه من شعراء اليونان والرومان واشهرهم كاتولس Catulus

وممن نبغ من السوريين في اوائل القرن الاول قبل المسيح الفيلسوف الابيقوري[1] النحوي اندرونيخس Andronichus الذي اسس مدرسة في رومية ثم نقلها الى كومي . وكان من معاصريه بيليوس سيروس (اي السوري) واصله من انطاكية . جيء به الى رومية رقيقاً فحرره مولاه لما رآه فيه من دلائل النجابة والفكاهة وسرعة الخاطر . فالف روايات وجيزة وجال من مكان الى آخر يمثلها بنفسه . وفي الالعاب التي اقامها يوليس قيصر عام ٤٥ ق . م جرت منافسة امامه بين الممثلين فنال هذا الشاب السوري الجائزة الاولى وحرمها لابيريوس اعظم ممثلي رومية . وبقيت روايات بيليوس تمثل قرناً كاملاً بعد موته ومنها ما وقع عليه الاختيار للتدريس في المدارس .

العصر الروماني

الارقاء . اكتسح بمبيوس سورية عام ٦٣ — ٦٤ ق . م وعملاً بخطة تلك الايام نقل الرومان آلافاً من السوريين الى ايطاليا وولاياتها . وفي القرن الثاني بعد المسيح اخذ اتجار يستوردون الارقاء من سورية و بيعونهم في المدن البحرية بالمزاد العلني فتشتتوا في انحاء ايطاليا يجرثون اراضي فقدت سكانها بداعي الحروب ويخدمون في بيوت الاشراف والمتمولين ويسوقون المركبات ويحملون محفات مواليهم الى غير ذلك من الاعمال التي ذكرها المؤرخ الروماني جوفينال[2] . وانصرف بعضهم الى معاطاة السحر والتكهن وفن الصراع والعزف على آلات الطرب . واستخدم غيرهم كتّاباً وعشّارين في دوائر الحكومة ووكلاء على مزارع الاغنياء . وكثر عدد الرقيق السوري حتى في طرّنس كان القوم يدعون كل رقيق يجهلون اسمه « سيروس » (Syrus اي سوري) وازداد نفوذ الرقيق السوري واشتهر بالمهارة[3] فحرّر اكثره واندمج في سكان البلاد التي حرر فيها فكان ذلك مثيلة جيش المهاجرين السوريين مع ان هجرتهم كانت الزامية

الجنود . بعد ان دخلت سورية في حوزة الرومان جعل الامبراطرة يجندون اهلها وينقلونهم الى ايطاليا واطراف المملكة فرساناً ورماة . فالفرقة الاوغسطية الثالثة

(١) من اتباع ابيقورس واهم تعاليم ابيقورس ان غاية الانسان انما هي التمتع باللذات والمسرّات (٢) جوفينال . جلد ٦ صفحة ٣٥١ (٣) لفي . ج ٣٩ ص ٦

(Le G. III Augusta) التي اقامت في نوميديا (تونس) كان قوامها من شبان دمشق وحماه وطرابلس وبيروت وصور وصيداء كذلك كانت الفرقة التراجانية الثانية التي اقامت في الاسكندرية . ولما انتخب اسبسيانس عام ٦٩ ب . م امبراطوراً نقل فرقته السورية معهُ الى رومية . ومنذ ذلك الحين اصبحت جنود الفرق كلها من الولايات الا ان الرومانيين كان يجوز لهم التطوُّع في فرقة الفرسان . ولما انت الفرقة الغالية (من فرنسا) لنصرة هذا الامبراطور كانت جنودها تحمي الشمس لدن شروقها « وهي عادة السوريين » على ما لاحظهُ المؤرخ تاشطُس[1] Tacitus . والجيش الذي جرَّدهُ اسكندر سفيروس (٢٢٢ — ٢٣٥ ب . م) على المانيا كان معظمهُ من المشارقة . ولما اخضع تراجانس داشيا (رومانيا) نقل اليها شعوباً من أدَسَّا ز الوها . اورفه) وتدمر[2] . وجاء في التاريخ ان سرية عددها الف من رماة حمص انتدبها احد القياصرة للاقامة في پانونيا وأخرى من رماة دمشق في المانيا العليا وغيرها من تدمر في بلاد المغرب . فكشف رجال هذه السرايا كتابات كثيرة بثي بعضها الى الآن وهي تدل على غيرتهم الدينية واحتفاظهم الشديد بدين آبائهم . ففي شمالي انكلترا قرب سور هدريانس وُجد شعر نظمهُ ضابط في مدح الإلهة السورية . وآخر قرب تيوكاسل حيث في الراجح اقامت السرية الصورية . ولدى انتهاء الخدمة العسكرية كان بعض رجالها يعود الى بلادهِ وبعضهم يستقر حيث كان فينشر معتقدات بلادهِ وطُرق تفكيرها . ولقد عثر احد النقابين على نصب في جنوبي فلسطين على تخوم بلاد العرب اقامهُ رجل تذكاراً لامرأتهِ التي كان تزوَّج بها في رومان بفرنسا ورافقتهُ عند رجوعهِ الى بلادهِ وقال انها ماتت بعيدة عن وطنها[3] . واكثر هذه الكتابات بالسريانية واليونانية اما اللاتينية فهي وان كانت يومئذٍ لغة سورية الرسمية فلم يتكلم بها سوى الهيئة الحاكمة وقليل من الضباط والتجار . والظاهر انهُ لم يكن من وسائط لدرس اللاتينية سوى مدرسة الشريعة في بيروت التي نشأت في القرن الاول بعد المسيح وازدهرت في القرن الثالث

التجار . لم يكن الامن مستتبًّا في زمن الجمهورية الرومانية ولكن لما انقرض الفرسان من بحر الروم على عهد الامبراطورية الرومانية كثر التجار السوريون "Syri Negotiatores" في المراكز التجارية والمدن البحرية من الولايات اللاتينية وكان عددهم يزداد سنويًّا باطراد

(١) تاشطس ج ٣ ص ٢٤ (٢) بوتر وسرس ٨ : ٦

(٣) Revue Archéologique سنة ١٩٠١ ج ٢ ص ٢٧٥

الاذكياء النشيطين من الارقاء السوريين وانشاء خدمة الجنود منهم فشادوا المستعمرات على شواطئ ايطاليا وغاليا (فرنسا) واسبانيا كما شادها قبلهم اسلافهم الفينيقيون والقرطجنيون ولم تزل آثارهم في نابولس (نابولي) وروميه وبالرمو وسيراكيوس (من اعمال سسليا) وترڤيري (في فرنسا) وتركو Tarraco (في اسبانيا) قائمة اليوم. ولقد اكتشف حديثاً في مالقه Malaga (من اعمال اسبانيا) كتابة تثبت وجود شركة سورية مساهمة فيها. واخرى في لبنان معنونة باسم تجارة في آرلس Arles (في فرنسا) يتعاطون شحن الحبوب. وعثر احدهم على تحرير يرقى عهده الى القرن الثالث كتبهُ رجل اسمهُ ثيم بن سعد احد وجهاء بلدة القنوات (١) وصاحب معامل على ضفة الرون في فرنسا. وكان في پُتيولي Puteoli مستعمرة سورية غنية لم تزل آثار مبانيها الفخمة قائمة اليوم. ومن آثارها كتاب كتبهُ اهلها في القرن الثاني الى مدينة صور جاء فيهِ ان عددهم قلّ الى درجة يصعب عليهم معها القيام بفروضهم الدينية علناً واستئجار المنتدى الذي كانت نفقاتهُ ٢٥٠ ديناراً في السنة. ويظهر ان بعض سكان هذه المستعمرة كانوا عرباً فقد جاء في كتابة ان احدهم قدّم جملين من ذهب نذراً لالهة العرب. وكان في أُستيا ميناء رومية مستعمرة سورية بقي منها اليوم آثار هيكل لمرنس Marnas اله المطر وشفيع مدينة غزة

ولم يكتفِ هؤلاء المستعمرون بالاماكن السهلة المنال ولكنهم اجابةً لدافع اخلاقهم القومية الموروثة وفي الاستهزاء بالاخطار والطموح الى المعالي توغلوا في داخلية اوربا عن طريق الانهر المعروفة. فساروا على ضفاف الدانوب حتى ابولُم في داشيا وعلى ضفاف الرون حتى ليون وعلى ضفاف الجيرُند Gironde الى بوردو. وكان نصيب غاليا (فرنسا) منهم عظيماً. ولم يقف المهاجرون عند هذا الحدّ بل تطوّحوا في الوهاد وبين الجبال الى القرى الصغيرة والمدن غير العامرة حيث المزاحمة التجارية على اخفها. وقد حفظت لنا جنيفا (في سويسرا) ولاباتي ولومي وغيرها من مدن الداخلية الصغيرة كتابات وهياكل وتماثيل لمثرا Mithra الاله الايراني الاصل والذي نشر عبادتهُ الرحّالون السوريون. فلا مبالغة اذاً قلنا ان مستعمراتهم كانت يومئذٍ ترصّع خارطة اوربا كما ترصع النجوم قبة السماء

ولمّا طمى جيش البربرية على شمال اوربا واغرق المدنية الرومانية في اواخر القرن الخامس وما بعد كانت هذه المستعمرات مناثر للعلم والتمدن. حتى ان امواج الغزوات المتتابعة لم تكن

(١) باللاتينية «كنتا». ذكرها بيرصفوس. قابل فناة في سفر العدد ٣٢: ٤٢ وقنوات في دليل فلسطين وسوريا لبديكر

على شدتها وضخامتها لتطفئ مصباح هؤلاء المهاجرين او لتفتّ من عضدهم فانهم تحت حكم الدولة المروفنجية كانوا لم يزالوا يتكلمون لغتهم السامية ولما دخل كنتران مدينة اورليان عام ٥٨٥ ب . م استقبلهُ وفد يترنم بمدحه « بلسان اللاتين واليهود والسوريين » على ما ذكر المؤرّخ غريغوري ده تور[1]. والظاهر ان مستعمرة باريس كانت اهم هذه المستعمرات واشدها ساعداً يدلك على ذلك انها عام ٥٩١ ب . م كان لها من السطوة ما مكّنها من ان تسم احد ابنائها اسقفاً عاماً على عاصمة الافرنسيس وتستولي على عدد كبير من المناصب الاكليريكية[2]

وانكباب هؤلاء المهاجرين هذا على العمل وافتحامهم الاخطار حدا بالقديس لروفيوس الذي مات في اوائل القرن الخامس الى كتابة كلماته المأثورة وهي ان رغبة السوري في الاعمال التجارية التي من ورائها ربح تحملهُ الى اقاصي المعمور

وما زال سيل مهاجرة السوريين يتعاظم الى ان قضى العرب في القرنين السابع والثامن على الملاحة في البحر المتوسط وسدوا سبل التجارة البحرية

وقد شيّد المستعمرون السوريون المصارف « الينوك » واقاموا المكاتب للعمولة والسمسرة وشحن البضائع واسسوا المحلات التجارية بل احتكروا تجارة الشرق باسرها. وكانوا يستوردون البضائع الشرقية وهي الخمر والزيوت من لبنان ووادي العاصي وغزّة والزجاج واللؤلؤ والارجوان من صور وعبداء والحرير والصوف من مدن فلسطين والبضائع الكتانية والمصنوعات المعدنية من بيروت وجبيل والاثمار المتعددة من دمشق . وفي اوائل العهد الروماني كانت تجارة اوربا مع الشرق الاقصى عن طريق البحر الاحمر فالاسكندرية برًّا ومنها الى المدن الاوربية البحرية . اما بعد ان دخلت بلاد العرب في القرن الثاني تحت السلطة الرومانية وبعد ان مهّد تراجنس وخلفاؤهُ الطرق التجارية في سورية اخذت البضائع من بلاد فارس والهند والصين ترد عن طريق خليج العجم فدجلة والفرات ثم برًّا الى مدن سورية البحرية فصبحت تلك المدن مستودعاً لاوربا تشحن منها الطيوب من شبه جزيرة العرب والجواهر والعاج من الهند والتحف والاقمشة من بلاد فارس . وفي عهد يستنيانوس أدخل دود القزّ وشجر التوت الى سورية فاستغنى بذلك عن حرير الصين واليابان . وعلى الجملة فقول حزقيال عن تجارة صور في عهده يصح على سورية في هذا العهد كما صح عليها في عهده

(١) غريغوري ده تور ٨ : ١ (٢) غريغوري ده تور ٧ : ٣٩

ولم يكن المستعمرون كلهم تجاراً وعملاء بل كان بينهم كثيرون من اصحاب الفنادق والموسيقيين والنقاشين وغيرهم من الصنّاع لاسيما من عملة الزجاج والصبّاغين . وقد عدد ڤيرس الامبراطور الخليع من حروبه في پارثيا (ارمينيا وما جاورها) عرّج على اللاذقية واخذ منها جيشاً من الموسيقيين والممثلين والملاعبين الذين كان لهم في ذوق البلاد الايطالية تأثير يُذكر

الكهنة . وكان بين المهاجرين السوريين رهط من الكهنة والسحرة والعرّافات والمتنبين والمتنبيات والمشعوذين يخدمون الهياكل في المدن التي كان فيها من المستعمرين عدد كافٍ لاقامة الهياكل ويجولون في الاقاليم الزراعية التي لم يكن فيها العدد الكافي منهم لتشييد المذابح اكراماً لآلهة آبائهم واجدادهم . والظاهر انهُ نشأ بين هؤلاء الكهنة المتجولين طغمة كانت تتنقل من مكان الى آخر وتجمع من المؤمنين النذور والعشور باسم الإلاهة السورية ولقاسم الارقاء حصصهم . ومما جاء في وصف رئيس لهذه الطغمة يدعى فليبس Philebus انهُ كان شيخاً ابيض الشعر يسير واتباعهُ من قرية الى اخرى وراء دابة عليها تمثال الإلاهة السورية يغشاها الحرير . وهم يرقصون على الصنوج ويضربون على الدفوف والطبول ويرقصون بالنفوس والسكاكين . وكانت وجوههم مدهونة وروسهم ملفوفة بالعمائم . وشاحهم من الحرير وفي ارجلهم احذية صفراء وقد يجلدون انفسهم ويجرحون ابدانهم علانية من باب التوبة والتقشف . وفي اواخر الجمهورية الرومانية كان للعرّافات السوريات شأن رفيع في رومية . ولقد روى فلوطرخس ان مستشار ماريوس القائد الروماني الكبير كان عرّافة سورية اسمها مرثا لم يقدم ماريوس على عمل حربي الاّ بعد الاطلاع على رأيها [1]

تأثيرهم

بهذه الطرق الاربع — الرقيق والجندي والتاجر والكاهن — وجد التمدن السوري سبيلاً الى الشعب الروماني ونفخ فيهِ روحاً جديدة سياسيّة وفلسفيّة وعلميّة وادبيّة وفنيّة ودينيّة اشترك فيهِ الرجال والنساء كما سيجيء

جامعة كولمبيا بنيويورك فيليب حتي

(١) حياة ماريوس لفلوطرخس صفحة ١٧

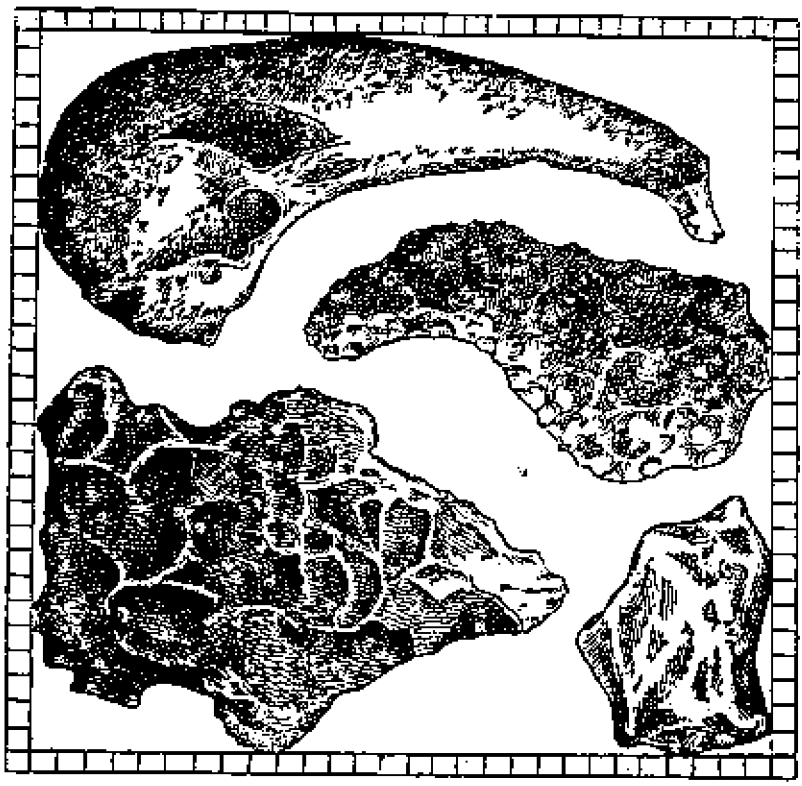

بعض اشكال الرجوم

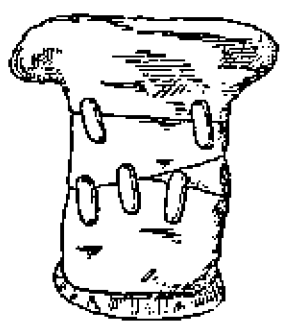

لكعن امرأة

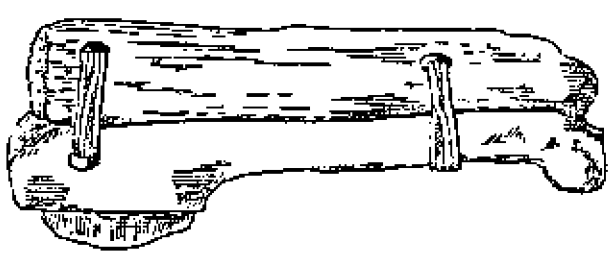

لكعن رجل

مقتطف يونيو ١٩١٧
امام الصفحة ٥٤٥